سِلْسِلَةُ: إِتْحَافِ الحَاضِرِ والبَادِي بِتَفْرِيغِ أَشْرِطَةِ العَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي (٦٥/ ٦)

تَفْرِيْغُ شَرِيْطٍ -لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يُنْشَرُ- بِعُنْوَانِ:

«الكَلِمَاتُ الوَعْظِيَّةُ وَالتَّوْجِيْهَاتُ المَنْهَجِيَّةُ» (٦/ ١٤)

«سُرْعَةُ انْقِضَاءِ الأَعْوَامِ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا»

لِفَضِيلَةِ الشَّيخِ العَلَّامَةِ

د. مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي المَدْخَلِي -حَفِظَهُ اللهُ-

المدرّس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

ألقاها فضيلته في شهر ذي الحجة عام ١٤٢١هـ في مصلى كلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيٍّ المَدَنِيِّ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وعَنْ والِدَيْهِ ومَشَايِخِه وَالمُسْلِمِيْنَ أَجْمَعِيْنَ-

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بعنوان: «سرعة انقضاء الأعوام، والزهد في الدنيا»

لفضيلة الشيخ محمد بن هادي المدخلي -حفظه الله-(١)

«﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٢-٤]، أحمده ﷻ وأشكره، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان:٦٢].

كما أحمده ﷻ أن فتح أبواب الخير وعدَّدها لعباده، فبالأمس كانت عشر ذي الحجة، ويوم عرفة الذي صيامه يُكفِّر سنتين؛ ماضية، وآتية، واليوم ما هي إلا أيام قليلة ونستقبل عامًا جديدًا، ونطوي عامًا جديدًا، والسعيد ليس من أدرك العيد، ولَبِسَ الجديد، وعَاقَرَ الغِيد، وملك الإماء والعبيد، لا والله، إنما السعيد من تقرَّب إلى الله ﷻ بطاعته، وأعدَّ ليوم الوعيد عُدَّته.

فَإِنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يومٍ مَضَى يُدْنِي من الأَجَلِ(٢)

لو كانت الناس تعقل؛ لَمَا فرحت بتقدمها بالأعمار، فالمرء في صِغَره يتمنَّى أن يكون شابًا، وفي أول شبابه يتمنَّى أن يكون رجلاً، وما علم المسكين أنه يفرح بنقصانه، والله ﷻ له الحكمة البالغة، وله الحجة القائمة على خلقه الدامغة، فقد أرسل إلينا رسلاً، وهذه الرسل قد بيَّنت للناس أتم البيان، وأنزل عليهم الكتب يُتلى فيها هذا البيان، ومن ذلكم البيان: نذير الشَّيب، ومن ذلكم البيان: السِّن: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

---

(١) ألقاها فضيلته في شهر ذي الحجة عام ١٤٢١هـ في مصلى كلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

(٢) هذا البيت ساقه بالإسناد ابن أبي الدنيا في «كلام الليالي والأيام» كما في: «موسوعة ابن أبي الدنيا -ط أطلس الخضراء» (٥/ ١٨٣) إلى يزيد الرقاشي.

ويقول -عليه الصلاة والسلام-: «**أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ بلَّغَهُ السِّتِّينَ**»(١).

فمن بلغ الثلاثين والأربعين؛ فقد جاوز النصف الذي يُعذر فيه، فينبغي للعاقل أن يُدرِك ما هو قادم عليه، وألا تلهيه دنياه عن أخراه، فإنَّ الدنيا إنما هي مزرعة للآخرة، كما قال الله ﷻ: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٤].

وهذا العمل هو الذي يُرَتَّب عليه الجزاء: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل:٣٢]، ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور:١٤-١٦].

واليوم -يا عباد الله- المُحَرَّم على الأبواب -شهر الله المُحَرَّم- كما جاء ذلك في الحديث الصحيح(٢): «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ**» كما قال رسول الله ﷺ: «**كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ الفَرْدِ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ**»، فهذا المُحَرَّم قادم يطوي عامًا، ويفتتح عامًا.

إخوة الإسلام: الدنيا متاع وغرور، وإذا ازداد معها الملهيات والمغريات؛ فإنَّ اليوم يمر ولا تدركه، والشهر يمر ولا تدركه، والسَّنة تمر ولا تحس بها، كما جاء ذلك في الحديث في «المسند»: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ السَّنَةُ فِيهِ كَشَهْرٍ، وَالشَّهْرُ كَأُسْبُوعٍ**» وفي رواية: «**كَالْجُمُعَةِ، وَالأُسْبُوعُ كَيَومٍ، وَالْيَوْمُ كَسَاعَةٍ، وَالسَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ سَعَفَةٍ**»(٣).

قلة البركة، الأيام هي الأيام، والليالي هي الليالي، ولكن تنزع البركة.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٢٤٥٦) بلفظ: (أَعْذَرَ اللهُ إلى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتّى بلَّغَهُ ستِّينَ سنةً).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣١٩٧) -واللفظ له-، ومسلم في «صحيحه» برقم (١٦٧٩): (إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» -واللفظ له- برقم (١٠٩٤٣)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٣٣٢) بلفظ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونَ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٩/ ٤٦٦) برقم (٦٨٠٣).

قال بعض السلف في القرن الرابع لما ذكر هذا الحديث: (إلى الله نشكو من قلة البركة في زماننا)[1]، فماذا نقول نحن؟ تنوَّعت المغريات، وتعدَّدت الملهيات، وضاعت الأعمار -أو جُلُّها- في تحصيل الكماليات، ماذا بقي للعبد؟

فيا عباد الله: العمر قصير، والعاقل من يحرص على القصير حتى لا يفوت، وإنَّ هذه الأعمار قليلةٌ جدًا، والآمالُ طويلةٌ وعريضةٌ جدًا.

واعلم يا عبد الله: أنَّ هذا العلم إن لم يُثمر العمل فلا خير فيه، بل هو حجة الله ﷻ عليك، فالله الله: ما نيل ما عند الله ﷻ بأعظم من التقرب إليه ﷻ بطاعته، فالله الله في أداء الواجبات، والمحافظة عليها، والله الله في تكميلها بالنوافل، فإنها الرصيد الذي تُكَمَّل منه: «**انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟**»[2] في الصلاة، انظروا، فيا عباد الله نرى كثيرًا من الناس بمجرد تسليم الإمام ينفر، وسبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين، وتمام المئة لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ يمحو الله بها عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر، كما خرَّجه مسلم في «صحيحه»[3] من حديث أبي هريرة ﷺ، عملٌ قليلٌ وأجرٌ عظيمٌ من ربٍ كريمٍ يهب الجزيل ﷻ.

وإنَّ أعظم الصيام عند الله بعد شهر رمضان: شهر الله المُحَرَّم، قاله رسول الله ﷺ[4]، وقد كان -عليه الصلاة والسلام- لم يكن أكثر منه صيامًا ما كان منه في شعبان[5].

---

(١) لا أدري بالضبط مَن يقصد شيخنا -حفظه الله-، ولكنني وقفت على كلام للإمام الخطابي رحمه الله (ت ٣٨٨هـ) في كتابه: «معالم السنن» (٤/ ٣٤١) حيث قال: (قوله: «يتقارب الزمان» معناه: قصر زمان الأعمار وقلة البركة فيها)، وكثير من العلماء يقولون بهذا القول.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٩٤٩٤)، وابن ماجه في «سننه» برقم (١٤٢٦)، وأبو داود في «سننه» (٤١٣)، والترمذي في «جامعه» برقم (٤١٣)، والنسائي في «سننه» برقم (٤٦٥)، وصححه الألباني في «المشكاة» برقم (١٣٣٠)، و«صحيح أبي داود -الأم» برقم (٨١٠).

(٣) برقم (١٤٦).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١١٦٣) ولفظه: (أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ؛ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ).

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» -واللفظ له- برقم (١٩٧٠)، ومسلم في «صحيحه» برقم (١١٥٦): (لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْرًا أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ).

ولذلك جَمَعَ أهل العلم بين هذا الحديث -حديث عائشة- والحديث الآخر: بأنَّ هذا قاله النبي ﷺ في آخر حياته، أطلعه الله على الخير في هذا الشهر المُحَرَّم فقال فيه النبي ﷺ هذا.

وفيه يوم عاشوراء الذي يُكَفِّر الله ﷻ به خطايا سنة زَلَفَت وسَلَفَت ومَضَت، فمن فاته عرفة -صيام يوم عرفة- بعذر من الأعذار؛ فأمامه صيام يوم عاشوراء الذي قال فيه النبي ﷺ: «**أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ سَنَةً مَاضِيَةً**»(١).

والله الله -معشر الإخوان- في الإعراض عن الدنيا إلا فيما يجب مما تقوم به الحياة، فإنها دار متاع وغرور:

وَازْهَدْ بِدُنْيَاكَ وَقَصِّرِ الأَمَلْ ... وَاجْعَلْ لِوَجْهِ اللهِ أَجْمَعَ العَمَلْ
تَاللهِ لَوْ عَلِمْتَ مَا وَرَاءَكَا ... لَمَا ضَحِكْتَ وَلأَكْثَرْتَ البُكَا
قَدْ حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ ... وَالنَّارُ بِالذِي النُّفُوسُ تَشْتَهِي
مَعْ أَنَّ كُلاً مِنْهُمَا إِلَيْنَا ... أَدْنَى مِنِ الشِّرَاكِ فِي نَعْلَيْنَا(٢)

فهذه الدار مياسيرها عسر، وسرورها حزن، وكمالها نقص:

هَيَ الدَّارُ دَارُ الهَمِّ وَالغَمِّ وَالعَنَا ... سَرِيْعٌ تَقَضِّيهَا قَرِيْبٌ زَوَالُهَا
إِذَا أَضْحَكَتْ أَبْكَتْ وَإِنْ رَامَ وصلَها ... غَبِيٌّ فَيَا سُرْعَ انقِطَاعَ وِصَالِهَا
لَقَدْ نَظَرُوا قَومٌ بِعَينِ بَصِيرةٍ ... إِلَيهَا فَلَمْ تَغْرُرْهُمُ بِاختِيالِهَا
وَمَالَ إِلَيهَا آخَرُونَ لِجَهْلِهِمْ ... فلمَّا اطْمَأَنُّوا أَرشَقَتْهُمْ نِبالُهَا
مَحَلَّيْنِ قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا ... لِتَكْسَبُ أَو فَلْتَكْتَسِبْ مَا بَدا لها(٣)

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١١٦٢) بلفظ: (وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ).

(٢) هذه الأبيات من منظومة «السبل السوية لفقه السنن المروية» للشيخ العلَّامة حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ، كتاب الجامع، باب الورع والزهد والرقاق.

(٣) هذه الأبيات من المنظومة «الهائية» للشيخ العلامة حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ، ولم يذكرها الشيخ هنا على التوالي.

فيا معشر الإخوان: لا يغرَّنكم الفُتُوَّة والشباب، فأمر الله بين عشية وضحاها، بل وأقرب من ذلك: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس:٨٢-٨٣].

ويا عباد الله؛ جمال العلم: العمل به، بهاؤه، وثمرته، وجلاله، وزينته؛ العمل به، فإن لم يورث العمل؛ كان عليك الحجة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن دعاء لا يُسمع، نعوذ بالله من ذلك، نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

ونسأله ﷻ أن يُوفِّقنا وإياكم لمراضيه، وأن يُجنِّبنا وإياكم معاصيه وأسباب سخطه ومناهيه.

كما نسأله -سبحانه- الفقه في الدين، والبصيرة في اليقين، والثبات على الحق حتى نقدم عليه، غير ضالين ولا مُضلِّين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد».

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيٍّ المَدَنِيِّ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وعَنْ والِدَيْهِ ومَشَايِخِه وَالْمُسْلِمِيْنَ أَجْمَعِيْنَ-

فِي الرَّابِعِ وَالعِشْرِيْنَ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ عَامَ سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ وأَرْبَعِمِئةٍ وأَلْفٍ مِنَ الهِجْرَةِ